

الفصل الأول

هي دي أمريكا

obeikandi.com

نيويورك .. تفاحة الجنة سقطت على الأرض

إنها مدينة نيويورك التي تحمل اسم دوق يورك ، ويسيطر عليها اليهود ، ويرهبها الزوج ، وقد اشتراها أوربي أشقر من هندي أحمر بأربعة وعشرين دولاراً . فإذا بها تصبح خزانة الأرض وعاصمة الدنيا .

الزمان عام ١٥٢٤ . . ومركب شراعى يقبل من بعيد ، وصيحات الفرح في أفواه المغامرين فوقه ، والقبطان من فلورنسا الإيطالية . . جيوفانى فيرانزو ، وقد كان أسبق الجميع إلى رؤية الخليج الذى ينمط حول الجزيرة ، (فلما افتتح أهل نيويورك جسراً هائلاً بين جزيرتى ستاتن وبروكلين الواقعتين فى كوردون مدينة نيويورك - أطلقوا عليه كوبرى جيوفانى فيرانزو !) وسجلها فى خرائطه ، ولكنها كانت بعيدة عن الشواطىء التى كان يتدفق عليها الهاربون من الاضطهاد الدينى فى أوربا ، والحالمون بالمجد من القارة التى سئمت الحروب . والغزاة الأسبان الذين تملكتهم - بعد أن طردوا العرب من بلادهم - شهوة الغزو منذ أن أعلن كريستوفر كولومبس كشفه لأمريكا . . وفى عام ١٦٠٩ وصل إليها هنرى هيدسون ، قبطان انجليزى موظف فى شركة هولندية ، وحدث فى منظاره المكبر وصاح :

- يا إلهى إننى أرى نصف قمر !

وسأله مساعده الهولندى :

- سيدى هنرى هدرسون .. هل تعنى الجزيرة التى أمامنا .. أم النهر

الذى نسير إلى مصبه ؟!

فقال وهو يتجول بعينيه المجردتين مبهوراً :

- الجزيرة ..

وكان اسم الجزيرة مانهاتن .. هذا ما قاله الهنود الحمر سكانها ، أما النهر فقد أصبح نهر هدرسون .. تخليداً لهنرى هدرسون . وأقبل الهولنديون على الجزيرة .. فى عشرات السفن التى رست إلى الميناء فأصبح غابة من الأشعة البيضاء ، ولكن مانهاتن ملكية هندية . صاحبها صانع تبغ وخرز وتمايم . وقد بحث عنه «بيتر مينوى» وواضح من اسمه أنه من أصل فرنسى ، ووجدته ، وفاوضه على بيع الجزيرة ، ووافق الهندى الأحمر على أن يبيعها بأربعة وعشرين دولاراً . تقاضاها خرزا ملونا .. وظن أنه ضحك على الرجل الذى كان يمثل الشركة الهولندية .. ولكن العالم كله يضحك الآن على هذا «الهندي» لأن مانهاتن صارت هى جزيرة أعلى ناطحات السحاب فى العالم ، وأقوى بنوك العالم .. مانهاتن قصر الدنيا الشاهق ..

ولهذا فمدينة نيويورك عند الأمريكين هى رمز لأمريكا القوية والثرية . حتى لو تنصلوا منها بعد ذلك بأنها مدينة لاتعبر عن الشعب الأمريكى لأنها مدينة من لا مدينة له . تجمع الأثتات من كل الدنيا ..

سفينة نوح دونها ، وبرج بابل قصة قصيرة إلى جانب ملحمة نيويورك الكبيرة المثيرة ، فقد احتلها الهولنديون في مطلع القرن السابع عشر ، وسموها «نيونيدرلاند» أى الأراضى الواطئة الجديدة ، ولم يكن الهولنديون المحتلون دولة . . بل هى الشركة الهولندية لجزر الهند الجنوبية . تدعمها الدولة ، وكانت هذه الشركة تريد احتكار الأراضى لنفسها ، وهو ما عارضه بيتر مينيوى الذى اشترى جزيرة مانهاتن لحسابها . واستقال مينيوى . . وانتقل إلى العمل مع الحكومة السويدية ، واحتل لها مقاطعة «ديلاور» جنوبى نيويورك ، وأطلق عليها اسم «نيوسويد» ، واعتبر الهولنديون هذا التصرف تهديداً لهم . ولكن التهديد ظل باقياً لأن خلفاء مينيوى فى حكم «نيونيدرلاند» لم يفعلوا شيئاً يقوى مواقعهم ، فلما جاء «بيتر ستوفيزانت» - وهو الآن ماركة سجائر - احتل نيو سويد وألغى اسم «نيونيدرلاند» وسماها «نيو أمستردام» . . التى هى نيويورك الآن !

ولكن التشكيل النهائى لتلك المنطقة لم يضعه بيتر ستوفيزانت بل إن الذى وضعته هى سلسلة من المعارك التى خاضها الإنجليز والفرنسيون ضد الهنود الحمر ، وأحياناً بالتحالف مع الهنود الحمر . واستتبت السيطرة للإنجليز على نيو أمستردام عام ١٦٦٤ فأهداها الملك شارل الثانى لشقيقه دوق يورك ، ولهذا أصبحت تحمل اسمه ، أصبحت نيويورك ، وقد أصبح دوق يورك الملك جورج الثانى ، وأصبحت نيويورك أعظم مدينة فى العالم .

ونيو يورك مدينة تعشق الحرية . وهذا العشق قديم ، فقد كافح أهلها لكى يكون لهم صوت عند الحكومة البريطانية - أى حكومة

الاحتلال - وهم من طالبوا بإقصاء الحاكم البريطاني العام - آدموند الدروس - الذى كان شخصية كريمة ، فلما لم تتجب الحكومة البريطانية أقصاه الأهالى فى ثورة شعبية ، وتولى حكم المدينة تاجر . . وتاجر التاجر بالمدينة فقبض عليه حاكم بريطانى جديد ، وشنقه . وفى عام ١٧٣٥ سمعت أمريكا عن أول قضية من قضايا الحرية الصحفية ، أقامها «جون رنجز» صاحب «النيو جازيت» ، وأصبح من حقه أن ينشر ما يشاء . . طالما كان صادقا . وقدمت نيويورك للحرب الأهلية ٥٠٠ ألف مقاتل ، وبقي أهلها جنوداً للجبهة الداخلية ينتجون فى المصانع . ومن يومها لم تكف نيويورك عن العطاء والإنتاج واشتهرت بقدرتها على مضاعفة الإنتاج خلال كل الحروب ومضاعفة الإصلاحات . . وأهم ناطحات السحاب التى أقيمت فيها كانت فى الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية : ولهذا دخل «لاجوارديا» عمدة نيويورك وعمدة الإصلاح فى الفترة من عام ١٩٣٤ إلى عام ١٩٤٥ قلوب أهل المدينة فاطلقوا اسمه على مطار هائل !

ونيوويورك المدينة عاصمة ولاية نيويورك . . ونجمة النجوم فى العلم الأمريكى . . وقد اختارها جورج واشنطن ، عاصمة رسمية للولايات المتحدة لأنها الولاية الإمبراطورية . . (الإمباير ستيت) ، وهذا الاسم أطلق على أكبر عمارة فيها . . وهى مبنى (الإمباير ستيت) - ٦٥٠٠ نافذة - وبهذا المبنى يرمز لنيويورك ، وتمثال الحرية . وقد أقسم جورج واشنطن يمين الولاء الرئاسى عام ١٧٨٩ : فأقيم تمثال حيث أقسم ، وبقيت داره ومقر رئاسته مزاراً سياحياً تفخر به المدينة . ولكن نيويورك لم تستمر

طويلاً مقعداً لرئاسة الجمهورية . . ظلت كذلك عاماً واحداً ، وانفقت الولايات الأمريكية على ألا تستأثر إحدى هذه الولايات بمقعد الحكومة الفيدرالية بل تخصص أرضاً محايدة تسمى الآن واشنطن دي . سي . اى واشنطن الواقعة فى ضاحية من كولومبيا . وحملت المدينة اسم ابن نيويورك جورج واشنطن !

الصين وجرينتش !

ونيو يورك مجموعة أحياء كبيرة . . ماهاتن هى الجزيرة الرئيسية وحولها ما تبلغه بعبور كباريها الشاهقة أحياء «برونكس» و«كنجز» و«كوينز» و«رتشموند» . . وأحياء فرعية نوعية مثل «هارلم» حى الزوج الذى يعتبر أفقر أحياء المدينة وإن كان من أصحاب الملايين البيض من تهزه دوافع إنسانية إلى بناء دور لرعاية المشردين ، ومدارس لمحو أمية الأميين ، وأندية رياضية . . وأندية «هارلم» تخرج لأمريكا أقوى لاعبيها فى الملاكمة وكرة السلة والمصارعة . ثم تقدم للعالم أمهر عازفى الآلات الموسيقية مثل الخالد «أرمسترونج» ، أشهر عازفى القرن العشرين ، من «هارلم» يرتفع صخب موسيقى الجاز . . فهذه ماركتهم المسجلة ، ولكنها تختلط برائحة الخمر . فهنا عتاة المدمنين ، وتترنج - أى موسيقى الجاز - فى سحب الماريجوانا فهنا تجارتها النشيطة تحت إشراف عتاة المافيا من أبناء صقلية الإيطاليين . ولكن هارلم ليست شراً كلها كما قد توحي الصورة . . أو كما تؤكد السيرة . . إنها تخرج أساتذة الجامعات السود ، وأشهر الفنانين والفنانيات . . بالإضافة إلى أساطير الرياضة !

وفى حى «هارلم» الذى يزدحم بالزواج وأبناء بورتوريكو السمر ،

يخرج الآباء والأمهات في الأمسيات ليرقبوا أطفالهم وهم يمرحون في «الشوارع» المزدهمة بالسيارات .

وتحاول السلطات تقوية قبضتها على الزوج . الذين يتجمعون في هارلم ، فتزيد من عدد رجال البوليس بنسبة ١١ في المائة عن أى منطقة أخرى . وتقرر ذلك بقولها : إن أى حركة يقوم بها السود أخطر من انفجار القنبلة الذرية وانتشار الإشعاع الذرى على السكان .

مدمنو المخدرات :

إن نيويورك بها قوات بوليس أكبر من جيوش بعض الدول . ففي المدينة ٢٤ ألف رجل بوليس ، ورغم هذا فقد حدث في العام الماضى أن تمت بها ٢٤٥ جريمة قتل و١١١٥ جريمة هتك عرض و٦٠٦٤ سرقة . وهذه أعلى نسبة في عالم الجرائم . والمشاة وسائقو السيارات لا يستطيعون السير فى أمان فى عدد من شوارع نيويورك مساء ، وقرب حدائق السنترال بارك الشهيرة نهاراً .

اغتصاب التلميذات :

ومدارس نيويورك قد تعطيك صورة للأخلاق فى هذا المجتمع ، فمدرسة «جون مارشال» العليا تأمر فتياتها بالذهاب إلى المصعد ، كل فتاتين معا ، حماية لهن من الذئاب التى تغتصب كل فتاة تسير على انفراد فى المدرسة .

يصل تعداد نيويورك إلى ٨ ملايين نسمة وبين هؤلاء تجد واحداً من كل ثمانية يسكن فى أكواخ الأحياء الشعبية القذرة . . وهؤلاء المليون

نيويوركى يقاسمهم فى ججورهم ٩ ملايين فأر . وهذه الفئران من نوع
خطير ، عض أحدها رجلا فأصابه إصابة خطيرة . وقتل آخر طفلاً بعد
أن شوه ملامح وجهه . . ومعظم سكان أكواخ نيويورك هم من الزنوج
وعدددهم ٩٠٠ ألف نسمة ، وأبناء بورتوريكو وعدددهم ٧٠٠ ألف
آخرون ، ويقيم فيها أيضاً عدد كبير من اليهود والإيطاليين والأيرلنديين
. . ومشاكل تعدد السكان تسبب أزمات لا حصر لها ، فأبناء
بورتوريكو يزيدون كل عام بمعدل ٤٠ ألف نسمة وهؤلاء المواطنون
الأمريكيون لا يجيدون الإنجليزية .

وتوجد بعض مساكن شعبية بنيت لحل أزمة المساكن ، ولكن إذا
اقتربت منها متفحصاً ، راعك أن نوافذها محطمة الزجاج ، وأبوابها
مخلوعة وجدرانها متصدعة . كما أن مفاتيح النور معطلة دائماً وبعض
الأسانسيرات تحولت إلى دورات للمياه .

إن نيويورك لم تعد تصلح بعد لذوى الدخل المتوسط ، ولذا أخذوا
يلجأون للضواحي الهادئة النائية . وهكذا تبقى نيويورك لأصحابها :
كبار أصحاب الأسهم ومديرى المصانع الذين يشكلون قوة سياسية هامة
ذات نفوذ اقتصادى تستطيع شراء النواب والصحف والناخبين . .
وللفقراء المعدمين الذين يشكلون أغلبية فاقدة النفوذ . لقد ظهرت
حاجة المدينة أخيراً إلى عدد أكبر من رجال البوليس والمطافئ ورجال
التعليم . . وأصبح عدد كبير من مباني المستشفيات والمدارس فى حاجة
إلى التجديد والإصلاح . . أما مكتبة المدينة فإنها تعاني من قلة العمل
وعدم شراء الكتب الجديدة . .

عاصمة اقتصادية :

ونيو يورك مدينة رجال الأعمال.. فيها عدد من الصناعات والمؤسسات المالية والاقتصادية التي تؤدي أعمالاً كثيرة التنوع . ولهذا فإنها ترمومتر الاقتصاد الأمريكي ، ويبدو ذلك واضحاً في حالات الأزمة الاقتصادية فتصاب نيو يورك حينئذ بشلل اقتصادي هائل ، وتتحرك فيها طواير العاطلين . والمدينة من الأهمية الاقتصادية بمكان حتى إن كل مؤسسة اقتصادية أيا كان نوع عملها تبادر إلى إنشاء مكتب لها فيها منذ إنشائها ، ولذلك فإن في أرجائها عدداً من مكاتب الشركات يزيد على عدد مكاتب الشركات المتناثرة في الولايات المتحدة كلها، أما ميناء نيو يورك فإنه ما زال الميناء الأمريكي الرئيسي ، وهو يصدر ٢٦,٧ في المائة من الصادرات الأمريكية .

والصناعة الرئيسية في اقتصاد نيو يورك هي صناعة الملابس الجاهزة، ولكن هذه الصناعة أصيبت بهزات شديدة بسبب ارتفاع تكاليفها والمنافسة الجديدة التي بدأت في كاليفورنيا .

والمجتمع الأمريكي مجتمع عجيب فيه من يمتلكون كل شيء وفيه من لا يملكون أي شيء ! ، مجتمع خلقت منه السياسة والإقطاع والدولار عالماً من عبدة المال . . وأصبح الإنسان الأمريكي العادي مجرد آلة تعمل وتعيش بالتقيط . . صحيح أن الفرد هناك يمتلك المنزل والسيارة آخر موديل والتليفزيون الملون . وجميع وسائل الحياة الحديثة ولكن بالديون لأصحاب شركات الاحتكار والمال والتجارة .

فمثلاً هناك شركات تعلن في الصحف والتلفزيون وبصفحات كاملة : استلم سيارة دون أن تدفع مليماً واحداً وكل ما هو مطلوب رقم حسابك في البنك واسمك ورقم بطاقة العمل !! وتكون النتيجة . . الديون والأقساط التي لا تنتهى . . حتى دفن الموتى عندهم بالتقسيط المريح !! وهكذا تتضخم أموال الاحتكاريين وأصحاب رؤوس الأموال ليغرقوا الأسواق كل يوم بمخترعات جديدة وآلات حديثة وأفكار جديدة تغرق معها الأسر في بحر من الديون والأقساط التي ربما طالت لأكثر من عشرين سنة !!

ومن المناظر المألوفة طوال سيرك في شوارع نيويورك أو نيوجرسي . . تلفزيونات ورايوهات وأكوام من الأثاث أمام المنازل !! فهناك لا يوجد من يصلح لمبة التلفزيون أو «رجل الترابيزة» أو يرفو البدلة والبنطلون ولذلك يلقون بها خارج المنازل لتحملها عربات الزبالة .

ومن هنا فإن الرجل الأمريكي أصبح مشغولاً دائماً بالسيارة الجديدة . . وبالمنزل الجديد . . ولذلك فهو يعمل من الثامنة والنصف صباحاً . . حتى الخامسة مساءً ليتمكن من تسديد الديون والأقساط . . لدرجة قتلت لديه المشاعر الإنسانية والروابط الأسرية . . فهو وحيد بين أسرته وإذا فتح الجريدة فإنها ليقرأ الأسعار والإعلانات وأخبار الجرائم والقتل . وإذا جلس في أوقات فراغه أمام التلفزيون فإنها ليشاهد الكرة وأفلام القتل والجنس والإعلانات ويحجل أرقام تلفونات البائعين ليشتري ويبيع ويدفع ويشهر إفلاسه !! وهكذا نجده بعيداً عن العالم الخارجى . . وبعيداً عما يجري في الأمم المتحدة . . وهى على بعد أمتار

منه - وبعيداً من السياسة في الخارج والداخل ومشغولاً بنفسه عن نفسه!!

وأما عطلة نهاية الأسبوع فمن الأسر الأمريكية من تذهب إلى الأرياف أو إلى «المزادات!!» .

فنشاهد في أعداد يومى السبت والأحد من صحف نيويورك حوالى عشرين صفحة إعلانات عن المزادات فيأخذ الأمريكى سيارته ودفتر الشيكات ويتجول من شارع إلى آخر ومن مدينة إلى مدينة وراء قلم حبر نادر أو صورة ملونة أو تمثال مغشوش!! ومن الطريف أن هناك بعض المزادات بالتقسيط أيضاً!! أى ادخل المزاد واشتر ما تريد وادفع مؤخرًا ولا تظن إنك تهرب . . فلا بد أن تدفع اليوم . . أو غداً ، المهم أنك ستدفع . .

ومعظم الأسر الأمريكية مشغولة عن أمريكا بحياتها . . ومشغولة عن العالم بمشاكلها . . وأفراد الأسرة كل في عالمه الخاص . . الأب . . لا يعرف أين زوجته لها عملها ومشاغلها وأصدقائها وحفلاتها الخاصة . . والبنت بعد الثامنة عشرة تعيش حياتها بعيداً عن الأسرة وبمفردها ! والابن يترك المنزل والمدرسة ليعمل بالثانوية فالتعليم الجامعى نفقاته باهظة ولايمكن أن يتحملة أى أب دخله السنوى حوالى ١٥ ألف دولار!! ولذلك نجد الآباء يطردون أولادهم بعد الثامنة عشرة فعليه أن يعمل ليعيش وأن يلتحق بالجامعة مساء إذا أراد وعلى نفقته !

وعلى الرغم من قوانين تقييد الطلاق العنيفة التى أصدرتها الدولة وهى

تنص على أن كل مطلقة لها الحق في نصف ممتلكات زوجها ونصف دخله مدى الحياة !! - على الرغم من هذه القوانين فإن الطلاق زاد زيادة تهدد المجتمع الأمريكى . . لأن المرأة الأمريكية متمردة بطبيعتها . . جنسية بطبيعتها . . مغرورة . . متعجرفة . .

وفي مانهاتن فقط يعيش ٣ ملايين نسمة . . ويدخلها يومياً أكثر من ٥ ملايين نسمة . . وهى جزيرة لا تزيد مساحتها على ٢٢ ميلاً !! وتحوى أكبر الشوارع فى العالم . . شوارع وأحياء كاملة لتجارة وعروض الجنس بارات ومطاعم وملاهى أكثر مما فى جميع بلاد أوروبا !! وفى بنوكها أكثر من ٩٦٥ بليون دولار !! .

وأهم ما تتميز به مانهاتن . . هؤلاء البشر ، من كل الأجناس والألوان . . أحياء صينية . . وروسية وألمانية وفيها إيطاليون أكثر مما فى مدينة فينيسيا !! أيرلنديون أكثر مما فى دبلن !! ويهود أكثر مما فى إسرائيل !! هؤلاء البشر يتحدثون ٧٥ لغة حتى إن اللغة الانجليزية سمعها هناك «مكرها» وهذه الجزيرة تعتبر أعجب جزيرة فى العالم . . فحاكمها من أصل انجليزى . . ومدير الأمن من أصل يهودى ومدير البوليس من أصل ألمانى . . ومدير المرافق من أصل إيطالى . .

والنتيجة لهذا التباين والتفاوت العجيب أن عصابات السطو والإرهاب اتخذت منها وكرماً للقتل والسلب والبوليس الأمريكى لا تراه هناك ولا تسمع عنه !! . . فبوليس نيويورك جبان مرتش يعمل لحساب العصابات . . وكل عصابة تسيطر على منطقة من نيويورك . . ولها عملاؤها من رجال البوليس . . تدفع لهم رواتب شهرية ومن يقف

أمامها تقتله فوراً !! ومن لايتعاون معها تخطف أولاده وتغتصب بناته !!

وفي مانهاتن شوارع كاملة للجنس أمثال شارع (٤٢) وبرودواي والشارع السابع وحوارى وأزقة (داونتاون) وحديقة السنترال بارك الشبيهة بالهايدبارك اللندنية . . أصبحت أيضاً ميداناً للهييز والجنس والشذوذ!!

نيويورك ، التفاحة الكبيرة كما يطلقون عليها أو مدينة الضرائب والغرباء وناطحات السحاب العملاقة التى ترتفع يوماً بعد يوم حتى يخيل إليك أن الأدوار العليا فى جانبي الطريق تتشابك وأنت تراها من بعد مدينة الانطلاق بلا حدود والخوف أيضاً بلا حدود ، النظام والاحترام الشديد له ، والفوضى وعدم إمكانية السيطرة عليها، جنون الأسعار الغريب والرخص الشديد ، الانقلاب الذى يحدث يوماً بعد يوم فى المفاهيم ، وتأثير الطاقة على حياة الناس . كل ذلك يتفاعل داخل التفاحة الكبيرة . ولكن مذاقها يظل حلوا .

ودائماً العين الغربية تشاهد وتلاحظ أكثر مما يشاهده ويلاحظه هذا الخليط الضخم المكون من ١٠ ملايين من البشر يتزايدون فى النهاية ليصبح ١٢ مليوناً ، ويختفى مليونان من هذا العدد تحت سطح الأرض فى أنابيب الأنفاق .

يرتبط اسم نيويورك بناطحات السحاب التى تتزايد بشكل غريب عاماً بعد عام، وهى ترمز للزيادة الكبيرة فى رؤوس الأموال التى تمتلكها

الشركات والبنوك والأفراد . مثل «روكفلر» ويمتلك وحده ٢١ ناطحة في الشارع الخامس ترتفع كل منها ما بين ٧٠ و ٩٠ طابقاً . مدينة متكاملة يلتف حولها السياح وداخل أسواقها ومطاعمها ومقاهيها وفي الأدوار تحت سطح الأرض ويطلق روكفلر النافورات حول مبانيه الـ ٢١ وتلتف حولها الحدائق والتماثيل وأحواض الزهور في شكل متناسق ويشعر السائح الذي يتجول حول مباني روكفلر أن ما يشاهده هو امتداد لتلك الجولة التي قضاها بين التابلوهات الرائعة داخل معرض بيكاسو المجاور . . . وبجوار هذه الناطحات تطل واحدة من الشوامخ ذات الواجهات الأربع الزجاجية والتي تمتلكها ابنة أوناسيس .

والشيء الذي يلفت النظر أن تشاهد عمليات الغسيل المستمرة لهذه الناطحات ، لم يقتصر الأمر على الناطحات الزجاجية بل إن الواجهات من المباني تغسل بالمنظفات والفرش الكهربائية حتى يعود اللون الأبيض إلى هذه الواجهات بشكل يجعلها كالجديدة . وفي يوم الأحد تلتف الأوناش حول العديد من هذه الناطحات لتقوم بدورها في نقل الأثاث من وإلى شقق هذه المباني الضخمة لتدخل من النوافذ وتخرج منها بعيداً عن المصاعد الكهربائية وآلاف الدرجات من السلام .

والسرقات في تزايد مستمر لدرجة أن خطف الحقائب من أيدي السيدات أمر سهل ، وهذا يفسر السر وراء حمل الأمريكيات حقيبتي يد في يد واحدة . وانقلبت أيضاً مفاهيم الأمريكيين عموماً بسبب أزمة الطاقة ، لا أستطيع أن أقول إن السيارات الأمريكية الكبيرة قد اختفت

ولكنها في سبيلها إلى الاختفاء إن الذى يركب سيارة صغيرة في شوارع المدن الأمريكية عموماً هو الذى ينظر إليه على أنه سعيد الحظ ، لأنها أصبحت هي السيارة المرتفعة الثمن والقليلة النفقات .

وأثناء تجوالك في حى «برودواى» فإنك قد تجد إحدى الجماعات الدينية وقد حلق أفرادها شعورهم وأطلقوا ذقونهم بأعداد كبيرة وبينهم السيدات يطوفون حى المجون ويدقون بأيديهم على الطبول بشدة منادين بالعودة إلى الله ويطلقون أصواتهم إلى العنان : الله هو الملاك المخلص . ويتعطل المرور في المدينة المزدحمة . ويلتف العديد من السياح حول هذا المشهد الدينى .

وبالرغم من النظام المفروض على المدينة خاصة في المرور والذى يشعر الجميع بالخطورة من أى مخالفة ، إلا أن المدينة تعاني من الفوضى التى لايمكن أن يحدث مثلها ولا حتى في بعض الدول الأفريقية أو الآسيوية المتخلفة . هذه الفوضى تبدو واضحة على جدران قطارات مترو الأنفاق من الشخطة بأقلام الفلومستر ، بجميع الألوان وقد حاول المسئولون أكثر من مرة تنظيف هذه الشخطة إلا أنها كانت تعود من جديد بشكل أكثر حدة .

هذه الفوضى تجدها داخل سيارات الأتوبيس من تلك الأصوات المطلقة من أجهزة الراديو والتى يحملها الزوج ، لذا فإن اللافتات المعلقة في الأتوبيسات تطلب دائماً عدم تشغيل أجهزة الراديو والتسجيل لراحة الركاب . وبالرغم من أن أسعار جميع الخدمات مرتفعة بشكل

جنونى - التليفونات والبريد وتذكرة الأتوبيس والمترو ، السينما والمسارح ، الفنادق ، التاكسى ، الإيجارات ، إلا أن الملابس والمأكولات أسعارها أرخص بكثير من بلاد عديدة هذه هى المدينة التى تعيش ساهرة فى الوقت الذى ينام فيه أكثر من ثلثى البشر .

شقة للإيجار في نيويورك

على غير باقى المدن الأمريكية ، فإن مدينة «نيويورك» تنبض بالحياة فى مركزها . تموج وتفور ولا تعرف للهدوء معنى ولا للنوم سبيلا ، وخاصة فى جزيرة مانهاتن قلب نيويورك وعقلها . شوارعها الجانبية لا تخلو من المارة ، أما شوارعها الكبرى فلا تخلو من السياح . شبكة مواصلاتها على درجة عالية جداً من الكفاءة وهى تربط مانهاتن (القلب) بباقى أطراف مدينة نيويورك المترامية (برونكس ، كوينز ، بروكلين . . .) . محلاتها مزدحمة بالبضائع وأكثر ازدحاماً بالمرتادين . أما أميز ما يميزها ، فهو استئثارها بأكبر عدد من طبقة رجال الأعمال والمال . أما أبناء الطبقة المتوسطة فهم لا يكلون من الشكوى من الجريمة والازدحام والقاذورات والضرائب - وهو بالطبع نمط معاناة مختلف تماماً عن معاناة أبناء جلدتنا . أما باقى القارة الأمريكية فهادىء نسبياً أميل إلى الإيقاع القروى منه للحضرى ، ذو مراكز مدن فيدرالية بيروقراطية معدومة الحيوية خاملة النشاط محاطة بمئات الأميال المربعة من الحدائق والفيللات والمراكز التجارية الممتدة أفقياً .

ولكن كيف أصبحت «مانهاتن» مختلفة هكذا ؟ كيف أصبحت إلى هذا الحد أوربية ؟ وإلى هذا الحد بعيدة عن الأمركة (التي صبغت القارة

بأكملها) . السيدة «اليزابيث هوز» - المحررة في مجلة «النيويورك» - تقول إن ناطحات السحاب (الخاصية المميزة لمدينة نيويورك عن باقى مدن العالم) والامتداد الرأسى للإسكان ، تلك الفكرة التى كانت يوماً ما مبتكرة وجديدة ، أعطت حاضرة نهر «هدسون» تفرداً وتفوقها . وفى كتابها «نيويورك - نيويورك : - كيف غيرت العمارة الحياة فى المدينة ؟ » تقول بأنه قبل عام ١٨٦٩ كان سكان نيويورك المحترمون مثلهم مثل غيرهم فى باقى أمريكا ، يعيشون فى منازل خاصة ومنفصلة عن بعضها البعض . بالرغم من أن بعض البرجوازيين من ذوى الأصول الفرنسية كانوا يعيشون فى تجمعات ومبان عالية ذات طبقات (محدودة) وهى الرؤى المعيشية التى حملوها معهم من فرنسا . إلا أن أياً من الأمريكان المعاصرين مهما كانت طبقته الاجتماعية فإنه كان يعتبر المبنى المتعدد السكان ماخوراً للدعارة . إذ كيف يتمنى لهذا العدد الهائل من الأفراد أن يتحكموا فى الداخلين والخارجين من المبنى من الزوار وخاصة عندما يكون المدخل فى شارع جانبى بعيداً عن الشارع الرئيسى . . وشاعت قبل الحرب الأهلية ألفاظ مثل Tenement (مبنى متعدد الشقق) وقصد به المبنى الذى يضم ثلاث أو أربع عائلات . أما التعبير (Apartment Building) عمارة أو برج سكنى . فلم يكن معروفاً وقتها على الإطلاق .

وهذا التغيير بدأ فى عام ١٨٦٩ عندما بنى المهندس المعمارى «ريتشارد موريس هانت» أول عمارة سكنية أرستقراطية لواحد من أكثر رجالات نيويورك احتراماً فى ذلك الوقت وهو السيد «رذرفورد

ستيفسانت» وكان هذا المبنى يضمن لقاطنيه الأمن من خلال حراسة على مدار الـ ٢٤ ساعة بالإضافة إلى الخدمة المريحة للسكان . وهكذا تغلب مبنى «ستيفسانت» الواقع في ١٤٢ شرق شارع ١٨ على الصورة الكريمة القديمة « للشقة الفرنسية » واجتذب العديد من الأزواج من أبناء الطبقة الأرستقراطية وذوى السمعة الجيدة . فانتقلت إليه أرملة الجنرال «كاستر» الذى سقط في موقعة Little Bighorn « لتل بيغ هورن» .

وقد أغرى نجاح «ستيفسانت» الآخرين : وفي عام ١٨٨٤ بنى أفخم مبنى عرف في ذلك الوقت عند التقاء شارع ٧٢ بالجهة الغربية من الحديقة الكبرى التى تتوسط مدينة نيويورك . وسمى هذا المبنى «داكوتا» . ولأنه كان بعيداً عن قلب المدينة آنذاك ، فقد أطلقوا عليه استخفافاً أنه يقع ضمن حدود ولاية «داكوتا» البعيدة وأخذ اسمها !!

هذا المبنى كان مزركشاً إلى درجة مثيرة وكان به مدخلاً خاصاً بالعمال وسلمها خاصاً بالخدم وكذلك مصاعد منفصلة للخدمات والأعمال . وفي العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر . تحركت المنازل والقصور إلى أطراف المدينة في حين بدأت العمارات السكنية تنبت تدريجياً في المدينة وصاحبها تحول متدرج في التقبل الاجتماعى لهذه التكوينات الخرسانية الزاخرة بالسكان . وجدير بالذكر هنا انتقال المؤلف (ويليام دين هاولز) للسكنى من بوسطن إلى نيويورك ، ليس من ناحية أنه قد ساعد على تحويل مانهاتن إلى عاصمة ثقافية للبلاد . ولكن لأن المؤلف العظيم الشهير قد فضل السكنى في شقة على المنزل الواسع ذى الحديقة بأطراف

المدينة ، وما صاحب ذلك من تحول سكنى كبير فى السلوك الاجتماعى لأهالى المدينة . .

أما الرواج العظيم فى إنشاء العمارات السكنية والأبراج العالية فقد حدث عندما يسمى بنقطة تحول هذا القرن (الخاصة بالمدينة) والتي حددت بعام ١٩٠٤ وهو العام الذى افتتح فيه مشروع مترو الأنفاق لكى يصل قلب المدينة بأقصى شرقها وغربها . فساعد ذلك كثيراً على أن تنتشر الأبراج بسرعة وفى أماكن متفرقة كالزهور البرية تنبت شيطانية فى الفلاة . وبدأ الناس يعرفون «البلازا» والشقق الفندقية وناطحات السحاب وغيرها من فنون العمارة . وبحلول عام ١٩٢٩ كان وجه مدينة نيويورك قد تغيرت ملامحه تماماً .

أما ٩٨٪ من أثرياء «مانهاتن» فلم يأت عليهم «الكساد العظيم» إلا وهم من ساكنى العمارات والأبراج . وكثير منهم كان يتمسك بالفخامة التى عهدتها فى البيوتات التى كانت إلى عهد قريب تملأ الـ «أفينيو الخامس» أو تتناثر حول نهر هدسون . حتى إن شقة السيدة «هوتون» التى كانت تقع فى المبنى ١١٠٧ بنفس الشارع (الأفينيو الخامس) كان بها ٥٤ حجرة . .

أمريكا الدولة الحلم .. والحلم المستحيل

ما من قمة من قمم المال والنفوذ في العالم إلا وترعرعت في حضن أمريكا مولداً أو نشأة أو هما معا ، أو على الأقل مرت بها مروراً عابراً .

فأمور المال في العالم لا تستقيم بغير أمريكا سواء شئنا أم لم نشأ وأى عملية في العالم قلت أو عظمت قيمتها فلا بد أن تقيم بالدولار الأمريكي . وأمريكا إن لم تبدأ بها الثروة فلا بد أن تصب في مصارفها وتستثمر فيها كي يضمن صاحبها النمو المطرد والذي لا يعرف حدوداً . لهذا سوف نبدأ بإلقاء الضوء على أمريكا متعرضين لبعض من جوانب الحياة هناك بمحاسنها ومساوئها .

بين مجموع سكان الولايات المتحدة الذي يبلغ ٦, ٢٣٢ مليون نسمة كان هناك نحو ١١٢ مليون نسمة يمارسون أعمالاً مدنية في عام ١٩٩٠ .

ويبلغ متوسط الدخل السنوي للأسرة الأمريكية ٤٠٠, ٢٢ دولار ويتسنى لمعظم العمال الذين يبلغون سن التقاعد أن يتركوا وظائفهم ويعيشوا على ما يتقاضونه من مخصصات الضمان الاجتماعي أو غيرها من رواتب التقاعد أو المدخرات الشخصية ، أما المسنون المعوزون

فيحصلون على إعانات مالية بمقتضى برامج المعونة الفيدرالية ومعونة الولايات .

ويتمى ثلاثة أخماس جميع الأسر والأفراد إلى طبقتى الدخل المتوسط أو العالى وفي مقدرتهم أن يوفرُوا لأنفسهم ليس فقط ضروريات الحياة الأساسية فحسب مثل الغذاء والسكن والكساء بل أيضاً الكثير من كماليات الحياة العصرية ، ولقد أصبح العمال الأمريكيون اليوم من أكبر المستهلكين لمختلف السلع التى يتجونها .

وتعيش نسبة ١٤ بالمائة من السكان دون حد الفقر الذى تقرره الحكومة الفيدرالية وقد بلغ حد الفقر فى عام ١٩٩٢ دخلاً سنوياً يعادل ٩٨٦٠ دولاراً لأسرة تتألف من ثلاثة أشخاص ولا تعيش فى الريف . والأسر المكونة من العدد نفسه ولا يبلغ دخلها هذا الحد مؤهلة لأن تتلقى معونة من البرامج الاجتماعية المخصصة لهذا الغرض . وينفق الأمريكيون أموالهم بحرية ، كما يلجأون عند الضرورة إلى الاستدانة ليتمكنوا من شراء ما يبتغون ، ثم يقومون بتسديد ديونهم على أقساط شهرية منتظمة ، ولقد تغيرت خلال السنوات الأخيرة عادات الأمريكيين الشرائية : فالإقبال على شراء السلع المنزلية انخفض عما كان عليه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ويجرى الآن إنفاق مبالغ أكثر من المال على التعليم والعناية الطبية والخدمات والسفر ووسائل التسلية والترفيه ، فى حين تنفق نسبة مئوية أقل من الدخول على الغذاء والكساء واقتناء السيارات .

وأكثر الأسر الأمريكية اهتمت بتدبير ادخار بعض المال إما كودائع فى

المصارف أو اتحادات التسليف . . أو كسندات حكومية أو شراء عقارات السكن أو التأمين ، ولدى حوالى ٨٨ بالمائة من جميع الأسر تأمين على الحياة .

يتناول معظم الأمريكيين غذاء متوازنا ومتنوعا ، من اللحوم والأسماك والخضروات والخبز ومنتجات الحبوب والألبان وبالرغم من ارتفاع أسعار المواد الغذائية والسلع الأخرى فإن أجر ساعة عمل واحدة يشتري اليوم ضعفى ما كان يشتريه منذ ٣٥ سنة مضت .

ويقيم أغلب الأمريكيين فى شقق أو مساكن منفردة تنار بالكهرباء ومزودة بالتدفئة المركزية وتتوافر فيها المياه الساخنة والباردة ودورات المياه داخل المساكن ، وفى عام ١٩٩٢ كان عدد الوحدات السكنية ٩٣,٥ مليون ، فى حين كانت هناك ٥٨ مليون وحدة عام ١٩٦٠ وفى كثير من المدن الكبيرة تبذل الجهود لترميم البيوت القديمة والمتهلكة ، وهناك كثير من مشاريع الإسكان جرى تصميمها لذوى الدخل المنخفض وتمول من مصادر عامة .

ونتيجة الارتفاع العام فى دخول الأسر يمكن للمرء أن يجد عامل المصنع وصاحب المشروع التجارى الصغير والمدرس والبائع المتجول يسكنون جميعهم جنبا إلى جنب فى مساكن متشابهة فى الضواحي .

كان الفرد الأمريكى يتوقع فى بداية هذا القرن أن يعيش حتى سن السابعة والأربعين ، أما اليوم فإن هذا الرقم ارتفع إلى ٧٤ ، وخلال فترة الثمانين عاما الماضية هبطت باطراد نسبة الوفيات بين الأطفال بحيث

يموت منهم اليوم أقل من ١ بالمائة في عامهم الأول ، وتتوافر الآن في جميع أنحاء البلاد العناية الطبية الجيدة والعديد من المستشفيات والخدمات الصحية العامة على نطاق واسع .

ولدى الكثير من الأمريكيين تأمين صحى لمساعدتهم في تغطية النفقات الطبية التى يمكن أن تنشأ .

وتواجه الولايات المتحدة مشكلة صحية كبرى هى توفير العناية للمسنين الذين يعانون من أمراض مزمنة . وتتولى الحكومة الفيدرالية العناية بالأشخاص الذين بلغوا الخامسة والستين وما فوق ، وغير القادرين على تحمل نفقات الخدمات الطبية ويمكن لأولئك الأفراد أن يحصلوا على مساعدات فى دفع نفقات المستشفيات وخدمات التمريض البيتية والمعاینات الطبية خارج المستشفيات .

وهناك برنامج آخر للمعونة الطبية يعمل على رفع الأعباء الثقيلة والمتزايدة فى مجالات الصحة والنفقات الطبية عن كاهل الفقراء والأسر التى تضم المسنين والمقعدين والعميان .

وتساهم الحكومة كذلك فى دفع نفقات بناء بعض المستشفيات ويوجد فى البلاد حالياً حوالى ٧٠٠٠ مستشفى يوفر العديد منها العلاج المجانى أو برسوم منخفضة للعاجزين عن دفع نفقات علاجهم كاملة ومن هذه المستشفيات أيضاً ٣٤٨ مستشفى تديرها الحكومة الفيدرالية وتشرف على الأخرى حكومات الولايات والحكومات المحلية والكنائس وغيرها من المنظمات والجمعيات ، والأفراد والشركات الكبرى .

ويحصل خمسة من كل ستة من العاملين في المصانع والمكاتب ، مع أسرهم على الرعاية الطبية عن طريق التأمين الصحى الجماعى الذى يتحمل تكاليفه أرباب العمل والعمال معاً .

وأمرىكا حلم الثروة والثراء لها وجه آخر لا يدرك بشاعته إلا من عايشه ورآه رأى العين ، فحسب الإحصائيات الرسمية هناك أكثر من ستة ملايين أمريكى بدون مأوى ولا يملكون سوى أجساد ملقاة فى العراء على الأرصفة ، فولاية كاليفورنيا أجمل الولايات الأمريكية وأغناها على الإطلاق فيها (هوليوود) صانعة النجوم و(ديزنى لاند) مدينة الأحلام والعجائب ، وكذلك فيها أضخم حدائق الحيوان فى العالم وأروعها على الإطلاق ، وهى إحدى الولايات الأمريكية التى يبلغ نصيبها من المشردين أربعمائة ألف نسمة رسمياً وحوالى المليون وفق إحصائيات خاصة ، هذه الحقيقة التى لا تدخر الحكومة الأمريكية جهداً فى إخفائها لأنها واقع محرج تحجل الولايات المتحدة من مواجهة العالم به .

والتجول داخل مجتمع المشردين فى أمريكا مغامرة تحفها المخاطر ، بالدرجة الأولى ، ولكن على الرغم من خطورة المغامرة ، إلا أن المعنى والخبرة التى يخرج بها الإنسان من هذه الجولة ، يعدان ثروة ما بعدها ثروة لهذا المغامر خاصة لو كانت له رؤية الناقد وفضول الصحفى .

تبدأ المغامرة من الشوارع السادس والسابع والثامن وتقاطعاتها مع شارع ستانفورد وشارع لوس أنجليس حتى شارع سنترال ، مخترقاً منطقة طوكيو الصغيرة حتى منطقة مدينة الصين «تساينا تاون» : مناظر الفقر والأجساد العليلة الملقاة على الأرصفة لا فرق بينها وبين

صفائح القاذورات ، سوى أن تلك الاجساد تتحرك من آن لآخر .

بدأت الأنظار تتجه نحو المرشدين دون مأوى من الشعب الأمريكى الذى أخذ يردد أخبارهم وبشكل ظاهر سنة ١٩٨٠ ، عندما كان هناك قاتل متجول يقوم بطعن هؤلاء الذين ينامون على الأرصفة حتى الموت وهم نيام ليلاً ، وبعد أن تم القبض على هذا القاتل المتجول قامت حملة لجمع التبرعات لمساعدة هؤلاء المرشدين عن طريق الكنائس ومراكز الخدمة الاجتماعية ، ونشأت فكرة تلاحم الأيدى عبر أمريكا والتي نفذت فى مطلع ١٩٨٦ ، ثم اختفت أخبار المرشدين وكذلك أخبار التبرعات التي جمعت من أجلهم .

وبدأت أخبارهم فى الظهور ثانية عندما بدأ قاتل متجول آخر فى قتل المرشدين بإطلاق النار على رؤوسهم وهم نيام أيضاً .

ولم يقبض على هذا القاتل الذى يبلغ عدد ضحاياه حتى الآن ١٨ ضحية .

الغريب فى الأمر أنهم لم يلمسوا أى تغير فى حالتهم ، وأن شيئاً لتحسين أوضاعهم لم يحدث حتى الآن . بل إن بعض عربات الحساء التي تعمل لحساب جيش الإغاثة ، والتي تقوم بتوزيع الحساء ليلاً ، أصبحت تتأخر عن مواعيدها وأحياناً لا تصل على الإطلاق ، كذلك فإن القائمين على تنظيم عمليات المبيت فى بعض الكنائس أصبحوا يتاجرون فيها .

الغالبية العظمى من هؤلاء المرشدين تعتمد معيشتها على تجارة

المخدرات وعلى السرقات متنوعة الدرجات وتعتبر الدعارة مصدر الرزق الوحيد للنساء المشرذات بلا مأوى ، والمشاجرات الحادة ، التي تؤدي أحياناً إلى ضحايا ، حول بعض الخبز أو بقايا زجاجة خمر ، مشهد يتكرر عشرات المرات يومياً .

تقارير دائرة بوليس منطقة لوس أنجليس تقول إن هذه المنطقة التي تعج بالمشردين تسجل يومياً من مائة إلى مائة وخمسين بلاغاً ضد سرقات أو مشاجرات بالأسلحة الحادة .

وفي كثير من الأحيان يقوم بعضهم بالتشاجر عن قصد وإحداث جروح أو إصابات في أجسادهم ، حتى يتمكنوا من المبيت داخل أقسام الإسعاف أو السجن حتى الصباح ، والمؤلم أن بعض تلك المحاولات تنتهي بشكل مؤسف ، فقد قام أحدهم بطعن نفسه كما اعتاد ، إلا أن الجرح الذي اعتاد أن يحدثه لنفسه أدى إلى غرغرينة حادة أودت بحياته .

فصل الشتاء بالنسبة إلى هؤلاء المشردين هو الفصل الذي ترتفع فيه نسبة الوفيات بينهم ، إما بسبب البرد القارس ، وخصوصاً بين كبار السن ، أو حرقاً بسبب النيران التي يقومون بإشعالها ليلاً للتدفئة ، فيغلبهم النوم حولها ، وتعييس الحظ منهم من يتقلب على النار وهو نائم ، أو من تنشب فيه بعض الشرارات المتطايرة بفعل الهواء الشديد .

وقد سجلت الإحصائيات لسنة ١٩٨٥ مائة وفاة من جراء البرد وعشر وفيات بسبب حرائق التدفئة فقط .

ويشكل السود بين المشردين في الولايات المتحدة الأمريكية الغالبية

العظمى ونسبتهم تزيد على الستين في المائة والباقي هم أمريكيون بيض ومكييون وهسبانك ، أى من أم أو أب أمريكى .

معظم قصص هؤلاء المشردين تصب في قضية البطالة في امريكا ، وبعضها الآخر يدور حول الطلاق والتفكك الأسرى الحاد في كيان العائلة ، ومعظمهم من المراهقين أى دون سن الثامنة عشرة .

هذا بالنسبة للرجال ، أما بالنسبة للنساء ، فمعظم الحالات تبدأ بالحمل في سن المراهقة فيقوم الأهل بالتخلي عن الفتاة فتخلص من الطفل في إحدى دور الرعاية ومن ثم تبدأ حياة التشرد وممارسة الدعارة للكسب المادى .

والغريب أن ما تفرزه هذه المجموعات الهائلة من المشردين من انحرافات لم تحفز المسؤولين في الحكومة الأمريكية لاتخاذ تدابير للحد منها، على الأقل ، والسبب حتى الآن غامض ، حتى أن بعض هذه المجموعات المتشردة أصبحت تشكل عصابات بمعنى الكلمة ، (ومما يؤكد ذلك أن الدوريات الراجلة انعدمت من تلك المنطقة ، وتم استبدالها بدوريات متحركة تتكون كل دورية من عربتين) .

وهذا بدوره أدى إلى نتائج عكسية على أولئك المشردين الأبرياء الذين لا دخل لهم في العصابات إذ أصبحت الشرطة تعتبر كل مشرد في تلك المنطقة بدرجة «خطر جداً» ومعنى كلمة خطر جداً في لغة الشرطة الأمريكية أنه شخص يجب المبادرة إلى قتله من قبل رجالها ، سواء أكان يحمل سلاحاً ظاهراً أو غير ظاهر وهذا أيضاً تم إثباته في أحد تقارير

مكتب التحقيقات الفيدرالى . فبعد حادثة إحراق سيارة شرطة وقتل من فيها ، قام رجال الشرطة بقتل أربعة اشخاص أبرياء بينهم امرأة حامل عند خروجهم من فندق فورد فى الشارع رقم ٦ فى مدينة لوس أنجلوس ، وادعى رجال الشرطة أنهم كانوا يراقبون الفندق الذى يشتبه أن يكون فيه بعض الخطرين المسلحين وأن أحد الأربعة الذين خرجوا من باب الفندق اشتبه رجال الشرطة به يحمل مسدساً فى يده ، فقاموا بإطلاق النار صوب الأربعة فأردوهم قتلى .

وشريط الأحداث يطول سرده ، إذ لايجلو أسبوع فى تلك المنطقة من استدعاء رجال القبض «القناصة» إلى أحد المباني الخربة فى تلك المنطقة لاشتباهم بوجود مسلح فيها .

يقول أحد أصحاب الدكاكين ممن ما تزال لديهم الجرأة على فتح دكاكينهم فى تلك المنطقة : إنه فى السابق كان يعيش فى شيكاغو فى الأربعينات ، وهو يرى الآن وكأن الأحداث تعيد نفسها ، فالعصابات فى شيكاغو بدأت تتشكل من بعض المشردين والعاطلين عن العمل أثر انهيار الاقتصاد الأمريكى فى العشرينات وما نتج عن تلك السنوات من بطالة وأحداث . يقسم الرجل على أن ما يدور حوله الآن من تشكيل للعصابات يشبهها تماماً ، فهؤلاء الذين يشكلون العصابات تجمعهم كما تجمع من سبقهم غاية واحدة ، ألا وهى الحصول على المال ثم قال إننى أشهد ولادة عصابات شيكاغو من جديد .

«الكراك» نوع من الهيروين الحجرى ، صدق إن شئت أن الذى اخترعه هو أحد هؤلاء المشردين إذ أنه وجد نفسه لايتطيع الاستمرار

بالكمية الضئيلة التي يحصل عليها ، وكما يقولون الحاجة أم الاختراع ، فقد أرشدته حاجته إلى خلط الكمية الضئيلة ببعض الماء والنشا ثم تسخينها ثم تبريدها فأنتجت خليطاً قاتلاً أطلق عليه اسم «الكراك» وتأثيره أخطر ثلاثة أضعاف من الهيروين العادى ويؤدى إلى تشنج سريع فى عضلات الجمجمة والمخ بشكل أسرع من أى مخدر عرفه تجار المخدرات ، مما يعطى سعادة فورية للمدمنين لم يعهدوها من قبل ، ويؤدى إلى الوفاة من جراء استعماله بشكل مستمر فى مدة لا تتجاوز الستة أشهر ، وقد أدى هذا إلى إحداث ضجة لدى أوساط دوائر مكافحة المخدرات فى أمريكا لارتفاع عدد الوفيات بشكل غريب بين متعاطى المخدرات ، لأنهم بدأوا فى تعاطى الكراك لرخص ثمنه . فثمن الهيروين العادى يبلغ عشرة أضعاف ثمن الكراك للكمية نفسها فأصبح متعاطوه من المشردين والفقراء ، والأهم من ذلك طلبية المدارس والأطفال .

وهذا هو الشيء الوحيد الذى حرك الكونجرس الأمريكى ، هذه المرة ، للموافقة على إصدار قانون إعدام كل موزع للمخدر يؤدى إلى وفاة متعاطيه إذا ثبت أن الوفاة ناتجة عن تعاطى هذا المخدر .

ولكن أيضاً بعد تأخير دام أربع سنوات راح ضحيته ألوف من الشباب والأطفال فى الولايات المتحدة الأمريكية .

«مهما كانت درجة المشاركة فى الخطأ من جانب الشعب والحكومة الأمريكية معا ، إلا أن الجانب الأكبر يقع على عاتق الحكومة فهى

المسئولة عن التدهور في سلوك وتصرف الشعب الأمريكي ، واليوم فإن كل من يعيش في أمريكا يوقن يوميا بأن هذه الحضارة تسير بخطى سريعة إلى الوراء ، ولن يطول الأمر بها إذا بقي الحال على ما هو عليه من تفسخ في كيان المجتمع المريض ، إلى أن تسقط وتنهدم أو أن تظل واجهة براقية تحوى بداخلها خرابة تنعق فيها الغربان « هكذا علق الصحفى الأمريكى «مارك ستين» في جريدة الـ «لوس أنجليس تايمز» عندما قام بالتعليق على مقالة الإعلان عن تطبيق عقوبة الإعدام .

لا يعنى هذا أن كل المجتمع الامريكى مجرم أو منحرف ولكنه يبدو متغاضياً عما يدور بداخله بالنسبة إلى بعض طبقاته ، والمتغاضى عن المجرم لا يقل ذنباً عن المجرم نفسه .

طموحات الطبقة المتوسطة

كان من أعظم الأوتار التي ضربت عليها حملة الرئيس «بيل كلينتون» هو ذلك الذعر والرعب الذي انتاب الطبقة المتوسطة في المجتمع الأمريكي ، إثر شعورهم العام بأن تواجدهم المنظم ومعيشتهم في ضواحي المدن - وهو ما يعتبرونه حقهم الطبيعي - قد بدأ يتسرب من بين أصابعهم . أما أعظم الشروخ التي بدت في إدارة « كلينتون » حتى الآن فهو عجزها عن الإبقاء على هذه القضية في دائرة اهتماماتها اليومية .

وإنه ل يبدو من السهل على النخبة الحاكمة ، ليبرالية كانت أو غير ذلك ، أن تذهب إلى أشياء أخرى في فترة الاسترخاء الانتخابي ، بعيدة كل البعد عن قضايا فترات التوتر . قضايا تكون أهميتها أقل بكثير من الصحة والتعليم والبطالة والملكية الخاصة .

والقضية الساخنة الآن هي غضب الطبقة الوسطى وخوفها الذي يسرى الآن في السياسة الأمريكية كما تسرى النار في الهشيم ، والذي سوف يأخذ وقتاً حتى يتحول إلى حمم تأتي على الأخضر واليابس .

ونظرة هؤلاء الشباب القاصرة لأنفسهم وفيما حولهم بما لا يتعدى مستوى أكتافهم ورؤيتهم لآبائهم على أن مواقفهم كانت متناسبة تماماً مع زمنهم الماضي ولم تعد تصلح لواقعيات هذه الأيام .

وهكذا فإن الصدام بين الثقافات والمبادئ قد طغى على المصالح الاقتصادية المشتركة .

وهذه قصة المجتمع الذى اتسع يوماً ليستوعب جيلاً كاملاً من مهاجري الحرب العالمية الثانية الذين كانت حركتهم من المدينة إلى الأطراف المهمشة ، فى عصر ثبتت فيه الأسعار بينما زادت فيه قيمة العقارات زيادة رهيبية بطريقة جعلت من المتحيل على أبناء هذا الجيل العودة إلى قلب المدينة . وبقوا فى هجرتهم تلك يحملون ثقافات وشهادات علمية أكثر وأكبر من آبائهم ولكنها لم تضمن لهم على الأقل نفس مستوى معيشة الآباء ، بل جعلت مشكلاتهم أكثر حيرة وتعقيداً .

وقد ظهرت بعض المعتقدات الأساسية التى سادت فى فترة ما بعد الحرب (مثل أن كل الأشياء تأتى لمن يعمل بجد وينتظر دوره) والتى طمست حقيقة أن الحكومة - بدءاً من بيع البيوت بالتقسيط المريح إلى قائمة حقوق «بيل» - قد ساعدت فى خلق طبقة وسطى واسعة القاعدة فى الخمينات . هذه المعتقدات كان لها الكثير من الظلال السياسية وردود الفعل لدى الإدارة الأمريكية التى حاولت أن تخلق دوراً للحكومة فى مساعدة الأجيال الجديدة من الطبقة الوسطى الأمريكية فهل يحتاج الأطفال الكثير ، وبسرعة ، مثلما يعتقد آباؤهم . أم أنهم يستحقون برامج خدمية قومية شاملة تنهض بهذه الطبقة كلها من الأساس وتحركها إلى أعلى ولو لمسافة يسيرة . (فى مقابل التركيز على شرائح خدمية معينة والنهوض بها على حساب المستوى العام) .

وقد يبدو ذلك متعاضماً إلى حد كبير مع أبناء هذه الطبقة . وهى

تقول إن هؤلاء الأبناء يتمتعون بالفعل بطفولة مرفهة نسبياً (نظراً لما أضافته التكنولوجيا من وسائل رخيصة للتربية والترفيه) . ولكنهم جميعاً ما إن يشبوا عن الطوق حتى يدركوا أنهم في حاجة إلى ممارسة مهنتين في آن واحد حتى يتطيعوا أن يعيشوا حياة آبائهم التي عاشوها بمهنة واحدة فقط . فماذا فعلوا جميعاً ؟ لقد نحوا فكرة إنجاب الأطفال جانباً أو أجلوها أو في أحسن الأحوال حددوها بطفل واحد . وكان انزعاج الأمهات شديداً حول مستقبل أبنائهم . والانزعاج الأكبر كان من الخطر المحيى بهم في كل لحظة تمر عليهم وهن خارج البيت . أما اللواتى عشن « حركة المرأة من أجل المساواة » فقد وجدن أن البقاء بالمنزل مع أطفالهن ، ترف لا قبل لهن به . وكانت هى السخرية بعينها . . . أنهن يمارسن المساواة بالرجل قسراً ورغم أنوفهن . . . وصارت المسألة أنهن لايجب أن يبقين فى البيت حتى ولو أردن ذلك .

تاريخ العبودية

** كانت العبودية في أمريكا في العام ١٧٧٦ ، حين كانت مؤسسة قائمة بذاتها تسخر من إعلان الاستقلال الذي أكد أن كل البشر لهم حقوق متساوية لا تنكر ولا يجوز نكرانها ، في الحرية والسعادة . ولم يكن إعلان التحرر من العبودية هو فقط الترياق الشافي من كل التناقضات التي وقع فيها المجتمع الأمريكي آنذاك ، والتي امتدت ظلها حتى القرن العشرين . فصار التساؤل الملح الآن : هل حقاً غطى الوعد الأمريكي الزوج بالحياة الأمريكية الواعدة ، ألم تترك موروثات العبودية في نفوسهم آثاراً سلبية على الجهود المبذولة لأجل تحقيق مساواة فعالة بين أجناس نصف هذه القارة الشمالي ؟ .

** والاهتمام بدراسة حقبة «الرق في أمريكا» هو اهتمام حديث بين المؤرخين فخلال الأربعة عقود المنصرمة ، امتدت الدراسات لتغطي الفترة منذ عصر المتعمرات إلى بدايات القرن التاسع عشر . فشملت النواحي الاقتصادية والديموجرافية (دراسة إحصاء السكان) والأيدولوجية للعبودية وتأثير ذلك على المجتمع عامة والثقافة السائدة . ومقارنة ذلك النظام بأنظمة أخرى للرق في أزمنة وأمكنة مختلفة . وإعادة فتح ملف تحرير العبيد والنظر في الأحداث التي تعاقبت على هذا

المشروع. ومن هذه الدراسات تأتي «العبودية الأمريكية ١٦١٩ - ١٨٧٧» .

** وبمزيد من البحث في عبودية المتعمرات ، صار واضحاً أن هذا النظام لم ينم تدريجياً مع الوقت ، فقط ، بل اختلف من مكان لآخر. ولم يشكل العبيد السود جزءاً ذا قيمة في تركيبة المجتمع الأمريكي إلا في الأعوام الأخيرة للقرن السابع عشر ، عندما تناقست بشكل حاد «طلبيات» العبيد التي كان يوردها الإنجليز إلى القارة الأمريكية .

** وقد تكثف عبيد المتعمرات في تلك المناطق التي كان ينمو فيها الطباق مثل مستعمرتي «فيرجينيا» و«ميريلاند» ، حيث عاشوا في مجموعات صغيرة في مزارع متباعدة ، تحت إشراف المالك الأبيض . ذلك عكس ما حدث في مزارع الأرز و«الأنديجو» (نبات تؤخذ منه الصبغات الزرقاء والسوداء) في «ساوث كارولينا» حيث شكلوا غالبية السكان في إحصاء عام ١٧٠٨ ، وعاشوا في وحدات سكانية أكثر كثافة وأكثر تقارباً في المسافة . أما المالك الأبيض فكان في معظم الأحوال غائباً ، وهكذا ترك لهم الحبل على الغارب ليشكلوا الثقافة الخاصة بهم والتي عرفت بالـ «أفرو - أمريكية» وما ساعد في ذلك أيضاً تطبيق نظام «المقطوعيات» (الالتزام بحجم العمل وليس بمدته) مما أوجد وقت فراغ أكثر لدى هؤلاء الزوج كى يتفاعلوا وتكون لهم قوة فعل .

*** وفي الوقت التي انتشرت فيه العبودية والعبيد على مستوى كل المتعمرات ، إلا أن نبتهم في الشمال كانت قليلة .

كذلك بدأت تسن قوانين تنظيم تجارة العبيد . والقوانين التي تنظم
علاقتهم بملاكهم البيض (سنة ١٦٨٠) والتي صارت أكثر قسوة
وصرامة . فقد تزايدت أعداد الزوج بدرجة كبيرة وتزايد معهم الخوف
الأبيض من وحشيتهم وقوتهم الجسدية الطائشة . . وهكذا صارت
العبودية مؤسسة أمريكية مقننة ، تميز المستعمرات الإنجليزية عن
إنجلترا نفسها التي كانت تمارس أشكالاً أخرى من قمع البشر ليس من
بينها الرقيق السود .

وظهر أن نظام العبودية الأمريكي (الولايات المتحدة) كان أكثر
بشاعة منه في أمريكا اللاتينية . ولكن العبيد الأمريكيان (الشماليين)
أظهروا مقدرة فائقة على التعايش !! . أما في «البرازيل» و«جامايكا»
مثلاً ، فقد زادت أعداد الوفيات على أعداد المواليد ، وهكذا أخذت
نسبتهم تقل تدريجياً بتوقف الهجرة أما مواليد العبيد الأمريكيان الشماليين
فقد فاقوا بكثير أعداد من ماتوا قبل الثورة ، وهكذا اتجه التعداد العام
إلى الزيادة .

**** والمدهش في الأمر أنه من بين ١١ مليون أفريقي حملوا إلى القارة
الأمريكية فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، كان نصيب
الجزء الشمالي (الولايات المتحدة فيما بعد) حوالي ٦٠٠ - ٦٥٠ ألف
نسمة ، تكاثروا إلى ١,١ مليون بحلول عام ١٨١٠ . وبعد توقف
الهجرة ، تضاعف عددهم ثلاث مرات (تعداد عام ١٨٦٠) ، لكي
تصبح الولايات المتحدة ، أكبر دولة في نصف الكرة الغربي تضم أكبر
عدد من العبيد ! . وهذا النمو السريع كان محل دراسات عديدة .**

البعض يعزوه إلى المناخ الاستوائي لولاياتها الجنوبية والبعض الآخر إلى تضاؤل أهمية محصول قصب السكر الذي كانوا يعملون به (فلم يرهقهم أصحاب الأرض البيض) وبعض ثالث يميل إلى أن زيادة نسبة النساء في المهاجرين الأوائل ، هي السبب . . أما في القرن التاسع عشر فقد أعطى العبيد مزيداً من الطعام ورعاية طيبة أفضل ومساكن كافية وكان ذلك غرباً على تقاليد ذلك الزمان .

**** المقدرّة العجيبة على التزايد بسرعة كبيرة ، شجعت الملاك على اقتناء العبيد وحدث رواج طفرى في تلك التجارة . أما الأجيال التي ولدت على الأراضي الأمريكية فقد لاقت معاملة أفضل من سابقتها، الذين اعتبروا متوحشين ولا يمكن السيطرة عليهم إلا بالعصا والكرباج . ولأن الأجيال الوليدة من العبيد ، عوملت بآدمية أكثر . فقد تشابكت العلاقات بين السود والبيض شيئاً فشيئاً . وتدخل السيد الأبيض في كل دقائق حياة سدنّته . حتى صارت الحرية بالنسبة لهم ، هي التخلص من فضول هذا السيد فقط .**

**** تلك التداخلات كانت مثيرة للاشمئزاز ، بالإضافة إلى أنها ساعدت على خلق الشخصية المتمردة الراجعة في الاستقلال بين السود ، الذين كانوا لا يزالون يرزحون تحت نير نظام ضيق محدد قاس ؛ جعل من مجتمعهم (مجتمع العبيد) أضعف المجتمعات بالمقارنة بعبودية هذه الأيام في الأقطار الأخرى (عبيد الإقطاعيات الزراعية في روسيا) وهكذا كانت الصحوة بين عبيد أمريكا أضعف من ثورات العبيد الروس (التي**

اتسمت بالجماعية والشمولية أو الرقيق في أى مكان آخر . ومال (العبيد الأمريكيان) إلى التمردات الفردية أكثر من حركات المجموعات . حتى إن حكاياتهم الفولكلورية تحوى الكثير من قصص الأبطال الذين غامروا أو أبدعوا أو برعوا في الحيلة والدهاء . ولا تحوى أعمالاً بطولية أو فدائية تخدم قضية الجميع . واتضح هذا الميل الانعزالي بعد «حركة تحرير العبيد» . فهذه المجتمعات التى تحررت . تفتتت بسرعة وانحسب كل أفرادها إلى داخل أسرته الصغيرة وأرضه القليلة وانكفأ على ذاته . أما الأجيال التى تعاقبت فقد اندمجت أو حاولت ، مع المجتمع الأمريكى . وبدأت تملص من تاريخها القديم .

** ودراسة مثل هذه ، تتعرض لمثل هذه الحقة امة من التاريخ الحديث ، لا يتوقع منها أن تغطى كل المساحات بنفس التركيز والكثافة . فهى تمر مثلاً بالثورة الأمريكية مروراً عابراً . على أية حا لباحث لم يفته أن يذكر كيف غيرت الثورة من مفاهيم الشعب الأمريكى الذى بدأ يدرك فداحة أن يملك روحاً إنسانية يتحكم فيها كيف يشا كان من نتيجة ذلك أن توقفت تجارة العبيد نهائياً وبدأ تحريرهم ، سواء عن طريق التشريعات التى توالى وتزايدت صرامتها أو بحكم المحاكم ، وذلك فى الولايات الشمالية . أما فى الولايات الجنوبية فكانت حركة التحرير أبطأ ولكن أعمق تأثيراً (لأنها كانت تشمل النسبة الكبرى من العبيد) . وقد صاحب ذلك نشوء فكرة العنصرية العلمية ، المبنية على أسس علمية واقتصادية ، لتحل محل العنصرية الثقافية (التقليدية) المبنية على أسس التاريخ والجغرافيا واللون . ويذكر كذلك ، كيف أن شعار الحرية كان

يقوى تدريجياً ويزداد عنفاً وتأججاً حتى انسحب على أمريكا كلها ،
فعرفت بـ «البلد الحرة» واتخذت تمثال الحرية شعاراً لها . وبدأت المرأة
تمارس حريتها وكذلك الأقليات الدينية والعرقية وهاجر إليها
المضطهدون سياسياً . .

« السود » شوكة في الظهر

الآن وعلى الرغم من دعاوى التحرر والحرية ونبذ التفرقة العنصرية ، فإن مجتمع «الفرص المتاحة للجميع » لا يزال يزرع تحت وطأة المرض القديم المتجدد «التمييز العنصرى» . ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين فإن المرء لا يملك نفسه إلا أن يتعجب على حال شرطى العالم الذى لا يفتأ يرفع عقيرته بأهازيج العدل والحرية والمساواة ، وهو - فى أعماق ذاته - يعانى اضطراباً حاداً ونفساً لا تكاد تلتئم إلا لتنتشق .

هؤلاء هم «الزنج» أو «السود الأمريكان» الذى يحملون فى بشرتهم خطايا أجدادهم الافارقة ، فصاروا يمثلون قمة الإحساس بالذنب فى الضمير الأمريكى . إنهم التهديد والغضب والحجل الضارب فى أعماق أعماق هذا المجتمع . لقد عرفت أمريكا كيف تتعامل مع المهاجرين وكيف تمصهم كطاقة محرقة رخيصة تخدم البنية التحتية للهيكلة الاقتصادية ، لكنها أبداً لم تنس لمواطنيها من ذوى الأصول الافريقية ، خطيئة لونهم .

بداية نتساءل : ترى من بدأ؟! .. أهم السود الذين يتعاطون المخدرات ويرتكبون جرائم العنف والقتل ويمارسون التشرد بكل أنواعه؟! .. أهم صغارهم الذين يهربون من المدارس إلى الشوارع

فيروعون الأمنين بمسدساتهم وأهوائهم الطائشة؟! .. أم أنه المجتمع
الذي أفرز هذا النتاج؟!!

لا نهتم كثيراً بالإجابة على هذا السؤال بقدر ما نتخذ مدخلاً إلى
توصيف الحالة فيستمر التساؤل : بأى حق يجعلون الحياة صعبة على
أنفسهم ؟ لقد أعطوا الوقت والفرصة كي يبرزوا بأنفسهم كمواطنين
عاديين ، لكنهم قادتهم الذين يؤلبون فيهم روح «الدونية» والتمرد فيماذا
تفيد القوانين المكتوبة إذا كانت كل الممارسات تكرس هذا الشعور ؟ إن
مشكلة السود ليست هي «أم المشكلات» ولكنها إحدى صور مجتمع
صار يستمرىء شعور الضحية ويستلذ الآلام والمعاناة (حين لا تكون
مبررات كافية لذلك !!) .

لقد أصبحت أمريكا بلد المرشدين والشاكين ، فموظف في البريد
يرفع قضية على إدارة هيئته ، لأن كل العمليات التي تدار بها فيها الطرود
والخطابات والحوالات والصناديق ، قد صممت كلها لاستعمال الناس
ذوى الأيدي اليمنى أما هو فكان أعسر ! .. وآخر يعمل في مصنع
للبيرة في «ميتشيجان» يرفع قضية على مصنعه يطالبه فيها بمصاريف
علاجه من إدمان البيرة وتعويضه بمبلغ ضخم عن الأضرار الاجتماعية
التي حاقت به من جراء ذلك . وهو يرى أن السبب المباشر كان سماح
إدارته للعمال بتعاطي البيرة بأى كمية دون مقابل ! .. وبعض النساء
قدمن فريقاً لليسبول للمحاكمة لأن أعضاءه وزعوا هدايا عيد «الأب»
على الذكور فقط من مشجعي الفريق دون النساء مما يعد في نظرهن تفرقة
صارخة بسبب الجنس .

هذه الأمثلة وغيرها الكثير مما تحفل به الحياة اليومية الأمريكية ،
تعكس روحا عامة بدأت تسود ألا وهي الإحساس بانعدام المسؤولية
الشخصية والانكفاء على الذات والفردية وغياب صفات التسامح
والمشاركة . غير أنه في غمرة هؤلاء المتبرمين يبدو «السود» (في رأى
الكثير من أساتذة علم الاجتماع) مبالغين في حجم مشكلاتهم
ومعوقاتهم . فأحدهم وقد تخرج من الجامعة مهندسا منذ خمس سنوات لم
يعمل حتى الآن ، على الرغم من أن كل أبناء دفعته من البيض ، قد
عملوا فور تخرجهم . أما فرص العمل التي أتاحت له فهي إما ضابط
أمن في «سوبرماركت» أو «بوابا» أو صبيا في محلات «البيتسا» يحملها إلى
المنازل .

آخرون ، وهم كثير ، كانوا يقرأون إعلانا مبوبا ، فيتصلون بصاحبه
تليفونيا ، الذى يجدد لهم موعداً للمقابلة الشخصية مع كل الترحيب
بمؤهلاتهم المسموعة . وما أن تحدث المواجهة ، حتى يعتذر صاحب
العمل برقة ، أو يعد بالاتصال لاحقا ، أو يكون فجأ فيطلب منهم تزكية
صديق أبيض لو كانوا يعرفون !!

بعض علماء الاجتماع يؤيدون صحة تلك المزاعم ، ويؤكدون أنه على
الرغم من اتساع الطبقة الوسطى واستيعابها لنسبة كبيرة من السود إلا أن
هناك العديد من المهن التى مازالت مغلقة فى وجوههم مثل المحاماة
والهندسة المعمارية وطب الأسنان .

الاتجاه العام لدى الموظفين والمتقنين وأصحاب الأعمال من البيض
هو أن السود يجب أن يتقبلوا البدء من القاع وأن يبذلوا أقصى جهدهم

حتى يرتقوا بأعمالهم شيئاً فشيئاً . وهكذا فإن عليهم أن يظهروا من الصبر
والمثابرة ما لا يطلب من أقرانهم البيض وفي المقابل يحصلون على الحد
الأدنى من الأجور مثلهم مثل المهاجرين الجدد ، وربما أقل .

ومشكلة السود في أمريكا تصبح أكثر إلحاحاً وإيلاًماً عند ما تتحول
وتدير إلى المجتمع وجهها القبيح الذى يكشر عن أنياب العنف
والإرهاب .

والملاحظ أن الشباب فقط هم الذين يرتكبون مثل هذه الأعمال
وتتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين ، وهم يشكلون
نسبة واحد في المائة من التعداد السكانى ولا يعبأون كثيراً بالقوانين ولا
الأعراف . وفي أوقات الكساد التى مرت بالاقتصاد الأمريكى ، وعلى
حين كان البعض يتماسكون محاولين إنقاذ أنفسهم وعائلاتهم فإن
الشباب الأسود كان يبدو عقياً اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ، وكل ما
أتقنوه فى تلك الظروف الحالكة هو استعمال قوتهم الجسدية استعمالاً
طائشاً من أجل استمرار الحياة فى مجتمع قاس .

أما مظاهر هذا العنف فتظهر فى كون القتل صار هو السبب الأول
والرئيسى لموت شباب السود سواء بالأسلحة النارية أو بالأسلحة البيضاء
وبمعدلات تتراوح من تسعة إلى عشرة أمثال النسبة فى البيض فى نفس
السن . البعض من هؤلاء القتلى ، ضحايا أبرياء قتلوا عرضاً والبعض
الآخر قتلوا فى نزاعات حول المخدرات والجنس أو المسروقات . والآن :
« ١٩٩٣ » فإنه توجد مناطق فى بعض المدن الأمريكية ، لا يدري قاطنوها

ما إذا كانوا سيعيشون حتى آخر العام أم لا ، لذلك فإنهم لا يأبهون كثيرا بعقوبة الإعدام .

كانت الفكرة التي وجدت رواجاً على مدى ثلاثين عاماً منذ قرار «براون» سنة ١٩٥٤ ، هي أن الحكومة تستطيع فعل الكثير بخصوص المساواة بين الأجناس في أمريكا . لكن حقبة الثمانينات وأوائل التسعينات تميزت بالرفض الحكومي الصريح لهذه الفكرة وهي الفترة التي حكم فيها الجمهوريون وأرادوا أن يؤكدوا للناخبين البيض أن وضعهم المميز لن يمس من قريب أو بعيد وأن السود سوف يحصلون على دعم حكومي أقل من ذي قبل !! أما خسارة الديمقراطيين فإنها ترجع إلى اهتمامهم المتزايد بمجتمع الزوج ، وهو ما صرف عنهم الناخبين البيض فيما مضى ولعل هذا هو ما دعا الرئيس الأمريكي (الديمقراطي) إلى إخفاء مستشاريه السود عن أجهزة الإعلام ، والتقليل من ظهوره شخصياً في صورة المؤازر للمجموعات السوداء وكانت هي المرة الأولى في نصف قرن التي يتخلى فيها الحزب عن ذكر محاربة التمييز العنصري . إنها مخاطرة إذن ! . . لكن الديمقراطيين اتخذوها بتصميم ، ثقة في أن ذلك سوف يعطيهم فرصة أكثر مما أتيت لهم في حملتهم السابقة وما حدث هو أن السود صوتوا (للحزب الديمقراطي (متأثرين بالجو العام) لكن الكثير منهم رضوا بتجاهل دورهم ، أو أن ولاءهم للديمقراطيين أخذ كشيء مضمون . لذلك اختلف موقفهم ما بين المرشحين (الديمقراطيين) ، ففي حالة الأول كانت نسبة مشاركتهم في الانتخابات عشرة في المائة ، في حين انخفضت إلى ثمانية في المائة مع الأخير .

في دستور العمل الذي قدمه الرئيس الديمقراطي ونائبه والمسمى بـ «الناس أولاً» ، يتحاشى الاثنان ذكر كلمة التمييز العنصري ولو عرضاً - كذلك يغفلان عمداً ذكر الفصل بين السود والبيض سواء في السكن أو في المدرسة . وفي فصل كامل عن الحقوق المدنية يؤكدان أن محاباة إدارتهما لأى من أبناء الشعب الأمريكى ستكون على أساس درجة إعاقته البدنية أو تفضيل جنسى معين ذكرًا كان أم أنثى في عمل دون الآخر ، ولكنها أبداً لن تكون على أساس اللون . ويدرك الاثنان أن مشاعر الكراهية والإجباط تجرد أرضاً خصبة في مناطق تجمع السود الذين يولدون وينشأون بعيدين كل البعد عن البيض . فإذا خرجوا عن هذه الحدود الضيقة إلى المجتمع الواسع ، فإنهم لا يملكون أنفسهم من الإحساس بالغضب والمرارة والكراهية تجاه العنصر المسيطر . ويزداد الأمر سوءاً كلما زادت معاناتهم اليومية في سبيل ضمان حد أدنى من الحياة الكريمة لذلك كانت خطة الإدارة الجديدة تتضمن العديد من الأهداف الواعدة ، لا الحصر .

١ - الدعم المادى الكامل لبرنامج البداية الرئيسية بغرض تحسين القدرات التعليمية لدى الأطفال الفقراء .

٢ - برنامج «التعليم البيتى» والغرض منه تعليم الآباء والأمهات كيفية تربية أطفالهم .

٣ - سد الفجوة بين دخول الفقراء وحد الفقر .

٤ - خلق شبكة من مراكز رعاية الطفولة ، بحيث تنتشر انتشار المدارس .

٥ - برنامج لتدريب النساء لمدة عامين على عمل معين ، ثم إطلاقهن بعد ذلك سواء في مجال العمل العام أو الخاص .

مرة ثانية « مالكولم أكس »

يبدو أن الحديث عن «مالكولم أكس» لم ينقطع منذ بروز فيلم «سبايك لى» الأخير عنه وكأن هذا الفيلم قد فتح شهية الكتاب والقراء على السواء لمزيد من محاولة الفهم والتقرب أكثر لهذه الشخصية الأسطورية . شخصية الزعيم الأمريكى الأسود المسلم الذى تحول إلى «كاريزما» تاريخية ، يبدو أنها لن تمحى من الذاكرة قبل أمد بعيد .

فالنظر إلى فلسفته وشخصيته يجعلان منه رمزاً لوحدة القومية السوداء الثائرة ، ومحاولته فى فرض العنصر الأسود على سطح الحياة الأمريكية حتى يمكن لهذا العنصر أن يحتل مكانه اللائق . وكذلك يجب أن ندرس أفكاره التى طرحها قبل مقتله . إذ تعتبر هذه الثقافة وثبة تهدف لإيجاد وإنعاش الفكر الأمريكى والتقاء طرفى الشعب بلونيه الأبيض والأسود . وأما كونه كان محتضناً لمسلم كأحد مساعديه فهذا أدعى لأن يكون رمزاً أيضاً لباقى الشعوب المستضعفة من وجهة النظر الأمريكية .

جرائم الاغتصاب

** لا تصدقوا أن الغرب هو اللجنة الموعودة دائماً ! وأنه واحة الأمن والأمان وأن أهله قد استراحوا من كل منغص ، وهم الآن ينعمون بكل شيء . أيها السادة ، إذا كان يشغلنا الآن السباق التقني وملاحقة التطور العلمى الذى لا يهدأ . فهم تشغلهم أمور أبسط ولكنها أفدح . تشغلهم أمور سلامتهم وراحة بالهم . فالزوجة يشغلها أن زوجها قد لا يعود إليها أبداً . فقد يقتله مخبول أو مخمور أو طائش أرعن . ويشغلها أيضاً أطفالها ، الذين قد يقتلون أو يدهسون أو يختطفون أو يغتصبون . والزوج يشغله فوق ذلك ، أن زوجته أيضاً ، يمكن وببساطة شديدة أن تغتصب . فليس هناك رادع أخلاقى ولا قضائى قوى . وكأن الأمن قد صار موكولاً بأصحابه وعلى كل أن يتحمل مسئولية بيته ونفسه . يحدث هذا فى أرقى وأقوى دول العالم ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين فأى ردة يرتدها البشر .

** فهناك من يعتقد أن المغتصبين ليسوا مرضى ولكنهم شياطين مرده .

فهنالك قصور بين القضاة والجهاز القضائى يجعله لا يتمكن من أداء عمله أداء جيداً . وكذا رجال الشرطة والمحققون فهناك الكثير مما يشوب

عملهم من القصور والتشوش واللامبالاة . أما المدعون المدنيون فهؤلاء^٥ يتجنبون هذا النوع من القضايا المعقدة التي تخفض من أسهمهم وتلجم قدرتهم على الإقناع وفي النهاية تهز صورتهم في ميدان القضاء . ثم يأتي القضاة الذين يرون القضية أمامهم مهترئة ، وخشية أن تأتي أحكام الاستئناف فتطيح بأحكامهم وفي ذلك ما فيه من إهانة ، لذا فهم يحكمون بأدنى العقوبات . وفي النهاية نجد أن ميزان العدالة المقدس قد مال بشدة ناحية المعتصين .

** وهكذا فإن أقوى رموز هذا الجهاز نجدها أميل إلى التحالف مع المعتصين ، فهم جميعاً يكاد يملكهم شعور واحد بالاشمئزاز من المعتصبات وضحايا تلك الجرائم . صحيح أن نسبة كبيرة من هؤلاء الضحايا من المتاجرات بالمخدرات المتعاطيات والشامات والعاشرات والمتشردات واللبصوص . إلا أنه توجد بينهن أيضاً الراهبات والموظفات والمدرسات ، بل والجدات المتقدمات في العمر وقد تولدت لدى المعتصين قناعة ، أنهم كلما انتقوا ضحاياهم من الطبقات الدنيا من المجتمع ، فإن أحداً لن يعير القضية اهتماماً ! .

** فهناك من الأمثلة على مثل هذا الاضطراب في العلاقات الاجتماعية الأمريكية : فهذه موظفة عادت إلى بيتها ذات يوم ، فوجدته مضطرب الأثاث وفي حالة فوضى . وقطرات من الدماء تناثرت هنا وهناك ، فانزعجت الأم ونادت على ابنتها (ذات الإثني عشر ربيعاً) والتي من المفترض أن تكون قد عادت من المدرسة منذ ساعتين ، فلم يجبها إلا صوت رجل ، اندفع من حجرة نومها ووضع سكيناً في ظهرها

وقادها إلى الحمام حيث كانت ابنتها مغشياً عليها وفي حالة يرثى لها ، وكان بادياً أنها تعرضت لعملية انتهاك بالغة الوحشية وأدركت الأم أنه لا فكاك إلا بالإذعان التام لأوامر هذا الشيطان المولغ في الوحشية فاغتصبها هي الأخرى .

** ومن خلال الكثير من الخطوات الروتينية والبيروقراطية المعقدة والتي استنزفت كبرياء المرأة وابتتها ، قبل أن تستنزف أموالها ، تم رفع الدعوى ورغم وضوح القضية وبشاعة أحداثها ، فقد أدان المحلفون والقضاة الجاني باغتصاب الإبنة فقط ، دون الأم . إذ أن الأم لا تمثل لهم «ضحية جيدة» تخدمهم إعلامياً واجتماعياً ومهنياً ، على عكس الإبنة الصغيرة التي ستجعل منهم رموزاً للعدل المفقود ودرعا حامية للمجتمع . وهكذا صار المغتصبون يثقون في القضاء أكثر من ثقة الضحايا به ..

مثال آخر أحدث دويًا عظيمًا . وذلك أن أحد القضاة أصدر حكماً في قضية عرضت عليه سنة ١٩٨٨ ، اتهم فيها شخص بهتك عرض ثلاثة أطفال ٨٢ مرة . التهمة كانت ثابتة . أما الحكم فكان أن يلقي المتهم على العامة سلسلة من المحاضرات بعنوان «انتهاك عرض الأطفال» تنصب أساساً على تحذيرات من هؤلاء المصابين بالشذوذ وكيف يمكن التعرف عليهم وتجنبهم من بين باقى أفراد المجتمع الطبيعيين . وكذلك كيف نحمل أطفالنا من أن يصبح أحدهم واحداً من هؤلاء المنحرفين في المستقبل .

ولما كان الحكم ضعيفاً ، بل انه يشوه كل شيء جميل في المجتمع الأمريكي ، فها هي براءة الأطفال تنتهك . . وهاج المجتمع الأمريكي . . واضطر قضاة آخرون إلى الحكم على المتهم بالسجن ١٢ عاماً .